٨ـ القـــرآن الـكريم
فى كتاب النثر الفنى

« إن الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا »
[قرآن كريم]

للأستاذ محمد أحمد الغمراوى

لم نفرغ بعد من إفك صاحب النثر الفنى

فالمسلمون كافة يدينون بأن القرآن كلام الله ليس لإنسان فيه حرف ، وصاحب النثر الفنى يتكلم عن القرآن كأنه كلام النبى ، ويبنى على ذلك فى بحثه ما قد بنى . وقد أوردنا على ذلك النصوص من كلامه فى كلمتينا الرابعة والخامسة ، لكننا قلنا فى كلمتنا السادسة إننا لن نحتاج إلى تكرار نص إذا لج بزكى مبارك العناد فألجأنا إلى معاودة الاستشهاد

فهاك نصاً لم نذكره يجمع صنوفاً من الجهل وسوء الأدب قال من فصل النسيب صفحة ١٤٧ من الجزء الأول :

« ولم نجد فى المجموعات الأدبية مختارات نثرية فى النسيب لأن مصنفى المجموعات كانوا يفهمون أن الغزل لا يخرج عن الأنفاس الشعرية » . وقد كشف بقوله هـذا عن قلة اطلاع ، لأن كتاب (النثر المختار) يحوى أكثر من نص طويل من النثر الجاهلى فى النسيب على مذهبه ؛ لكن لا علينا ، فليس هذا من همنا الآن وإنما همنا ما كتب عقب كلامه السابق عن القرآن قال :

« غير أننا نجد فى النثر لأقدم عهوده نماذج غزلية كالذى وقع فى القرآن وصفاً للحور والولدان نحو :

(وحور عين ؛ كأمثال اللؤلؤ المكنون)

ونحو : (ويطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين)

وكما جاء فى سورة الواقعة :[1]

(١) الآيات كلها من سورة الواقعة
والشاهد الثانى صحته (يطوف عليهم) من غير واو وإن ورد فى الكتاب بالواو كما نقلنا

(إنا أنشأناهن إنشاء ؛ فجعلناهن أبكارا عربا أترابا)

فهذه كلها أوصاف تدخل فى باب النسيب . ونسب إلى إحدى النساء حديث فى وصف الرسول هو أيضاً نسيب ، لأنها تكلمت عن أوصافه الحسية التى تعين أنه إنسان جميل ، ووصف الجمال من ألوان النسيب . ثم جاء القصص الغرامى الذى شاع فى عصر بنى أمية وأول عصر بنى العباس »

وأول ما نلاحظ على كلامه أنه أدرج القرآن مع كلام البشر فى فصل من باب عقد لبحث خصائص النثر الفنى فى القرن الرابع ، وكلامه السابق مقدمة هذا الفصل ليريك فى زعمه تطور النسيب والغزل فى النثر من أقدم عهوده إلى القرن الرابع ، فهو بهذا يقول بلسان الفعل والتطبيق أن القرآن من كلام الناس ، يحشر مع كلام الناس ويصنف مع ما يناسبه من أصناف كلام الناس . والصنف الذى وضع فيه الآيات السابقة هو الغزل والنسيب

فهل قرىء أو سمع فى الأدب العربى قبل كتاب النثر الفنى أن القرآن به غزل ونسيب ؟ هل سمع أو قرىء لباحث مسلم أو غير مسلم قبل أن يكتب زكى مبارك كتابه أن آيات سورة الواقعة من الغزل والنسيب ؟

ما هو الغزل وما هو النسيب عند الأدباء وعند كل الناس ؟ أليس هو فى أضيق حدوده إعراب إنسان عن الإفتتان بجمال إنسان ؟ فأى ركن من هذه الأركان يمكن أن يطبق على ما ذكر زكى مبارك من نصوص القرآن ؟ دع عنك ما يصحب الغزل عادة من التمنى الظاهر أو المستتر ، فهل ذلك الوصف للحور فى الآخرة يمكن أن يعد غزلاً بأى وجه من الوجوه ؟

إن أحداً لم ير الحور ، حتى يفتتن فيصف . وليست الحور من متاع الدنيا ونعيمها حتى يكون وصفهن ووصف نساء الدنيا من باب سواء . ولو تخيل كاتب أو شاعر نساء القرن الآتى فوصف من جمالهن وبالغ ما عد أحد ذلك من الغزل ، فكيف يمكن أن يكون من الغزل جمال وصف الحور فى الآخرة وهن من الغيبيات عند المؤمنين ومن الخياليات عند الملحدين ؟

ولنفرض أن الحور حاضرات يراهن فى الدنيا كل إنسان ، أفيعد جمال وصفهن من الغزل والنسيب ؟ إن وصفهن عندئذ يكون مثل وصف نساء قطر من أقطار دنيانا هذه ، فهل يعد

هذا غزلاً ونسيباً ، أم الغزل يقتضى تخصيص أنثى معينة أو أناث معينات بالافتتان أو الإعجاب ؟

وعلى أى حال فمن هو المفتتن المعجب بالحور العين فى القرآن ؟ إن الغزل يستلزم متغزلاً كما يستلزم متغزلاً فيه . يستلزم شاعراً أو كاتباً فى طرف ، كما يستلزم أنثى — أو غير أنثى فى مذهب صاحب النثر الفنى — فى الطرف الآخر . فما هو الطرف الذى منه الافتتان فالوصف فى القرآن ؟ محمد بن عبد الله ؟ ! إذن لقد دار البحث ورجع إلى نفس النتيجة التى ظهرت من الأول : أن صاحب النثر الفنى يرى القرآن من عند محمد لا من عند الله ، إذ لا يمكن أن يجوز أن يصدر من الله جل جلاله غزل أو نسيب

لقد كان فى نفس النصوص القرآنية التى أوردها ذلك المغرور المتعالم ما يرده إلى صوابه لو كان يبحث حقاً ، فقد عد من النماذج الغزلية فى القرآن الآيات الكريمة (إنا أنشأناهن إنشاء . فجعلناهن أبكاراً . عُرباً أتراباً) . وهذا الكلام لا يمكن أن يكون من قول مخلوق ، بشر أو غير بشر ، لأنه لا يمكن أن يستقيم فى عقل عاقل أن يكون أحد من الخلق أنشأ أو ينشئ صنفاً من النساء إنشاء فى الدنيا فضلاً عن الآخرة . وإذا حاول مكابر أن يتجاهل دلالة المصدر ليصرف فعل (أنشأ) عن معناه الحقيقى إلى معنى مجازى يمكن أن يقوم به بشر ، فقد حال الله سبحانه بينه وبين ذلك بقوله تعالى : (فجعلناهن أبكارا) ، لأن الله وحده هو الذى يخلق الأنثى بكرا ، لا يقدر على ذلك غيره سبحانه . أما البشر أجمعون فيعجزون حتى عن أن يردوا الثيب بكراً مهما حاولوا . فضمير المتكلم فى تلك الآية الكريمة لا يجوز فى عقل أن يرجع إلى محمد أو إلى غير محمد من العرب أو من الخلق أجمعين . لا يجوز ولا يمكن أن يرجع ضمير المتكلم فى تلك الآية إلا إلى الخالق سبحانه ، فهو دليل قائم ومذكر دائم أن القرآن ليس من كلام مخلوق ، فلا يجوز أن يجريه أحد مجرى كلام البشر كما فعل زكى مبارك حين أجرى تلك الآيات الكريمة — وكلها من سورة واحدة — مجرى الغزل ، وحشرها بجهله وسوء أدبه فى فصل النسيب ، برغم خلوها من كل شرط من شروط الغزل والنسيب

على أن خطل زكى مبارك لم يقف به عند أمر الحور بل جعله يتعداهن إلى الولدان ، فاجترأ على أن يدخل فى باب النسيب قوله تعالى فى أهل الجنة : (يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق ، وكأس من معين)

وليس يدرى أحد ماذا فى هذه الآية الكريمة مما يمكن أن يدخل فى النسيب من قريب أو من بعيد حتى على فرض أنها من قول النبى لا من قول الحق سبحانه . فالأكواب والأباريق والكأس لا يمكن أن يعد ذكرها من باب الغزل بحال ، حتى لو كانت من خمر تغتال العقل ؛ فكيف وهى من معين لا يصدع ولا يغتال كما أخبرنا الله سبحانه فى الآية التى بعدها ليحول بين العقلاء وبين إنزال نعيم الآخرة منزلة ما يألف الناس فى الدنيا ، وليبطل إفك آفك إن زعم أو أراد أن يزعم أن الآية من الغزليات أو الخمريات . وما هى الآية التى بعدها ؟ هى قوله تعالى : (لا يُصَدَّعون عنها ولا يُنزِفون) . واسأل صاحب النثر الفنى — البحاثة المتجرد عن الهوى — لماذا لم يذكر هذه الآية عقب أختها ليتم المعنى وليكون القارئ على بينة من الأمر وهو يقرأ لصاحب الكتاب إفكه المبين ؟

لقد عرف صاحب الكتاب أن ذكر الآيتين معاً يفسد معناه ويفوت عليه غرضه . وغرضه أن يوقع فى نفس القارىء أن الوصف وصف مجلس شراب كالمعروف فى الأدب الخليع ، إذ ماذا تنتظر من شرب بين خمر وولدان ؟ فهذه هى القرينة الوحيدة التى أراد زكى مبارك أن يأتفكها ليصح له أن يقول إن آية (يطوف عليهم ولدان مخلدون) هى من باب الغزل والنسيب ، وليوحى إلى القارىء أن ما سماه بعد فى نفس الفصل بغزل المذكر كان معروفاً عند العرب ، أو سيكون معروفاً فى الجنة ، أو ما شاء الشيطان أن يسخر صاحب الكتاب لنفثه وبثه فى الصدور والنفوس . فان لم يكن هذا من مقصود صاحب

الكتاب ومراده ؛ فليخبرنا وجهاً آخر يمكن أن تدخل به تلك الآية فى الغزل والنسيب بأى شكل أو على أى احتمال ، مع أنه ليس فيها إلا مجرد لفظ الولدان ، وليس فيها من وصفهم إلا أنهم « مخلدون » . فليسوا من ولدان الدنيا التى علم منزل القرآن سبحانه أن سيجعل الشيطان لبعضهم أوصافاً لا تليق ، فنزههم سبحانه عن تلك الأوصاف بقرينتين مانعتين : وصفهم بالتخليد ، ووصف ما يحملون من شراب بأنه ليس مما يصدع الرأس أو يغتال العقل ، وذلك فضلاً عن القرائن الأخرى المنبثة فيما قبل هاتين الآيتين وما بعدها من الآيات .

وبعد فإن من أعجب عجائب القرآن الكريم وأروع مظاهر إعجازه أن تأبى آياته الكريمة هذا الإباء على من يبغيهن عوجاً ، أو يبتغي لهن نقصاً ، كهذا الذى أراد أن يجعل منهن غزلاً ونسيباً ، وقد أكرمهن الله ونزههن وأعزهن أن يكون بهن غزل أو نسيب . ولو أفلح زكي مبارك أو غيره فى مثل ما ابتغى وبغى ، لكان ذلك الغزل والنسيب من كلام البشر ، ولما كان القرآن هو القرآن الذى وصفه الله سبحانه بقوله : (وإنه لكتاب عزيز . لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . تنزيل من حكيم حميد) . وقد رأيت مثلاً من عزة القرآن كتاب الله ، ورأيت كيف يرتد عنه الباطل مقهوراً مدحوراً لم ينل من قدس القرآن وحماه شيئاً ، ولم يعلق بذلك القدس والحمى منه شيء . فالقرآن يدفع عن نفسه هذا الدفاع العجيب ، ويمتنع من عدوه ذلك الامتناع التام الأثيم ، امتناع الحق من الباطل . وكل الذى يلزم لإدراك ذلك عقل يدرك وقلب يفقه ونية خالصة لله لا تعرج على ما سواه ، وهى صفات تجتمع للمسلم حيناً ويعز اجتماعها كل حين

ومهما يكن من أمر الناظر فى القرآن ، فالقرآن فيه دلائل الإعجاز لمن يبصرها ، وفيه كل قوى الحق ليس فى الوجود ما يقهرها . (والله متم نوره ولو كره الكافرون)

محمد أحمد الغمراوى